Knowledge Limits For Realists

Dr. Monzer Shbani *
Noor al ali **

(Received 2 / 8 / 2023. Accepted 14 / 9 / 2023)

□ ABSTRACT □

In this research, we talked about the criticism of the knowledge theory at the realistic approach, the Platonic realism and the problems that can be considered to be related to the realistic existence of the knowledge themes. The first problem we encountered is related to mental essences and how they exist objectively away from the self that carries out the process of knowledge. Then we discussed the nature of wholenesses in Plato in their own existence, and also here we touched on the criticism of these mental wholenesses and the issues associated with the relationship of knowledge to sensory experience. After that, the research moved to deal with the most prominent statements of realism, which are immanence and independence. Then we moved to criticize the concept of common sense in realism, and how this realism was based on the elements and features of this sense. Here we referred to the problems of common sense itself and how they were reflected on the knowledge theory of realism, especially with regard to perception and its themes.

Keywords: knowledge theory, realism , metaphysics, ontology.

Copyright **:**Tishreen University journal-Syria, The authors retain the copyright under a CC BY-NC-SA 04

* **Associate Professor. Department of philosophy, faculty of arts humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria**
** **Postgraduate Student, Department of philosophy, faculty of arts humanities, Tishreen University , Lattakia , Syria noor. Alali @ tishreen. edu**

نقد نظرية المعرفة عند التيار الواقعي

د. منذر حسن شباني *

نور جاسم العلي **

(تاريخ الإيداع 2 / 8 / 2023. قبل للنشر في 14 / 9 / 2023)

□ ملخّص □

تحدثنا في هذا البحث عن نقد نظرية المعرفة عند التيار الواقعي، وقد تناولنا الحديث عن الواقعية الأفلاطونية، والمشكلات التي يمكن اعتبارها مشكلات متعلقة بالوجود الواقعي لموضوعات المعرفة، وأول مشكلة صادفتنا هي تلك المتعلقة بالجواهر العقلية وكيفية وجودها وجوداً موضوعياً بعيداً عن الذات التي تقوم بعملية المعرفة، وبعد ذلك ناقشنا طبيعة الكليات عند أفلاطون في وجودها الخاص، وأيضاً هنا تطرقنا إلى نقد هذه الكليات العقلية، والمسائل المرتبطة بعلاقة المعرفة بالتجربة الحسية، وأخيراً ناقشنا الوحدة الابستمولوجية كما تقدمها الواقعية في نظريتها المعرفية، وبيّن النقد هنا أن الواقعية أيضاً تقع في الخلط بين ما هو انطولوجي وما هو معرفي، بحيث كان هذا الخلط قد أفضى بالواقعية إلى تقديم نظرية معرفية تجاهلت دور التاريخ والصيرورة في إنتاج المعرفة، وهذه قضية انعكست على تاريخ نظرية المعرفة بالكامل لدى التيار الواقعي.

الكلمات المفتاحية: نظرية المعرفة، الواقعية، الميتافيزيقا، الانطولوجية.

حقوق النشر : مجلة جامعة تشرين- سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

* **أستاذ، قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.**

** **طالبة ماجستير ـ قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.**

مقدمة:

تعاني نظريات المعرفة لدى معظم التيارات، من مشكلات متعددة، وهو أمر طبيعي طالما أن نظرية المعرفة تتشكل في سياق موضوعات عدة، كالميتافيزيقا والانطولوجيا لدى كل تيار فلسفي، وقد تناول هذا البحث نقد نظرية المعرفة عند التيار الواقعي فتوزع على فقرات أربعة. ناقشت الفقرة الأولى أفكار مؤسس الواقعية وزعيمها الفيلسوف اليوناني أفلاطون، الذي تمثل واقعيته مركزاً هاماً في تاريخها، إلا إنه أكد في نظريته المعرفية على الموضوعات العقلية التي تمثل الوجود الموضوعي، بوصفها فقط موضوعات عقلية مما أثار مشكلات عدة، منها مشكلة الجواهر العقلية أو المعقولة، وكيفية وجودها وجوداً موضوعياً خارج الذهن، وفي الوقت نفسه فإن الذهن مطالب بمعرفتها، مع أنها ليست كائنات ذهنية، بل هي كائنات كلية بحسب أفلاطون ووجودها مستقل، مما يعني أن أفلاطون أراد أن يقول إن وجود الكليات سابق على العقل الذي عليه في ذات الوقت أن يحولها إلى معرفة عقلية، وهذا الموضوع يمكن قبوله إذا سلمنا مع أفلاطون بأن هذه الكليات العقلية هي كليات منطقية فقط، وعلى ما يبدو أن أفلاطون عندما قال بهذه الكليات المنطقية فهو لم يستطع أن يميز بين ما هو معرفي وما هو ميتافيزيقي، وهو أمر ربما انعكس على تاريخ الواقعية بالكامل.

وفي الفقرة الثانية تناول البحث نقد مقولتي المحايثة والاستقلال، اللتين اعتمدت عليهما الواقعية، ومقولة المحايثة لدى التيار الواقعي أيضاً تخلق أزمات في قلب نظرية المعرفة الواقعية، وأول هذه الأزمات نزع الفاعلية عن الإنسان الذي يتوجب عليه أن يعرف هذا الواقع ، حيث نجد أن المحايثة قد انطلقت من مقولة الكل في الكل، فلا شيء منفصل عن هذا الكل الذي يضم جميع الجزئيات ومنها الإنسان، الذي أصبح، والحال كذلك، منفعلاً وليس فاعلاً، ومن أجل الخروج من هذه الأزمة فإن الواقعية لجأت إلى مقولة أخرى، وهي مقولة الاستقلال، أي وجود الأشياء أو موضوعات المعرفة مستقلة عن العقل، ولكنها في الوقت نفسه تبقى حاضرة أمام هذا العقل كموضوعات معرفية، وهنا لم تستطع نظرية المعرفة أن تحل الإشكال أو أن تتخلص من الأزمة، بل لقد تعقدت المشكلة أكثر فأكثر وهو ما أوضحناه في سياق البحث، وتناولت الفقرة الثالثة نقد مفهوم الحس المشترك وكيف أرادت الواقعية من خلاله أن تؤكد على الوجود الواقعي بعيداً عن الوعي ودوره في التأثير على هذا الوجود، وأيضاً هنا ناقش البحث مشكلات الحس المشترك انطلاقاً من أن الواقعية تستند إلى الحس المشترك وتعتبره بمثابته أمراً بديهياً دون أن تقدم مراجعة نقدية لهذا الحس مما جعلها تبني نتائج متلاحقة على مقدمة واهية لا تصمد أمام النقد، وهنا عادت الواقعية إلى الخلط أيضاً بين ما هو معرفي وما هو أنطولوجي، خصوصاً عندما تتعامل الواقعية مع الموضوع، أي موضوع المعرفة وكأنه معطى جاهز، بحيث تسقط الواقعية التاريخ من حساباتها، وفي هذا الصدد ناقش البحث المشكلات المعقدة التي وقعت فيها نظرية المعرفة وخصوصاً حول علاقة الوعي بموضوعاتها، وهو ما أوصلها إلى أخطاء كثيرة عندما رفضت هذه النظرية أن تبحث في الوسيط المعرفي بين الإدراك وموضوعه، وانتهى البحث في الفقرة الأخيرة إلى نقد الواحدية الأبستمولوجية لدى الواقعية، وأيضاً هنا وقفنا على المشكلات التي تحيط بهذه الواحدية، ومنها أن هذه الواحدية هي واحدية زائفة لم تهدف إلى تقديم نظام معرفي متماسك بقدر ما أنها هدفت إلى تقديم ايديولوجيا معادية لأشكال الفلسفات التجريبية الإنكليزية والتوليفية الكانطية، حيث وجدنا أن الواقعية توحد بين الوعي وموضوعاته، أي أنها قد تخلت عن فكرة الاستقلال هنا مما يمكّننا من القول إنها قد وقعت في تناقض جديد كانت قد تهربت منه سابقاً، وفي السياق نفسه تبرز مقولة التاريخ والتجاهل

الواقعي لها بحيث إن هذه الواحدية الابستمولوجية لا تستطيع أن تصمد أمام النقد التاريخي، الذي يبرز دور التاريخ في تشكل كل من الانطولوجي والمعرفي وهو ما ابتعدت عنه الواقعية في نظريتها المعرفية على نحو تام ونهائي.

أهمية البحث وأهدافه

أهمية البحث:

ناقش البحث المشكلات المعقدة التي وقعت فيها نظرية المعرفة وخصوصاً حول علاقة الوعي بموضوعاتها، وهو ما أوصلها إلى أخطاء كثيرة عندما رفضت هذه النظرية أن تبحث في الوسيط المعرفي بين الإدراك وموضوعه.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى التطرق إلى فهم نظرية المعرفة من خلال التيار الواقعي

منهج البحث:

استعنا في هذا البحث على منهج النقدي التاريخي.

أولاً: مشكلات الفلسفة الواقعية المعرفية في الأفلاطونية.

تمثل الأفلاطونية مركزاً هاماً في تاريخ الواقعية خصوصاً عندما نجد أن موضوعاتها عقلية، وفي الوقت نفسه فهي لا توجد وجوداً ذاتياً، بل إنها تمثل الوجود الموضوعي، بمعنى أن موضوعات المعرفة موجودة وجوداً واقعياً بعيداً عن الذهن الإنساني، ولكن هذه النظرية تثير جملة من المشكلات على رأسها مشكلة الجواهر العقلية أو المعقولة، وإمكانية وجودها وجوداً موضوعياً بعيداً عن الذات العارفة، أي بعيداً عن الذهن الذي يتوجب عليه أن يقوم بعملية المعرفة، مما يجعل هذه الكائنات العقلية أو الجواهر التي يتحدث عنها أفلاطون غير معروفة، إذ إن هذه الجواهر العقلية كما يرى باحثون" موجودة وجوداً ضمنياً ويطلق على هذا الوجود الضمني اصطلاح وجود الجواهر المعقولة تمييزاً له عن الوجود الشيئي للجزيئات في الزمان والمكان، وهذه الكليات ليست ذهنية ومن الخطأ القول إنها تصورات موضوعية"[1].

هنا يضعنا موقف الواقعية الأفلاطونية أمام مشكلة تهدد المعرفة الواقعية بالكامل، إذ كيف يمكن أن تكون هذه الكائنات العقلية كائنات المعرفة، وفي الوقت نفسه، فإنها ليست كائنات ذهنية، بل هي مستقلة عن الذهن وكأن أفلاطون يريد أن يقول إن المعرفة موجودة وسابقة على العقل، وفي الوقت نفسه فهي معرفة عقلية، ويشرح ذلك مونتاجيو بالقول" إن هناك بعض الكليات أو الماهيات التي تبقى، بمعنى أنها يمكن أن يتم التعرف عليها منطقياً مع إنها لا تستطيع أن تشاهد تجريبياً عندما لا نكون على وعي بها. والمناقشة التي يستخدمها الواقعيون في محاولاتهم نحو إظهار هذا المبدأ تسير في خط متواز مع تلك التي يستخدمونها من أجل إثبات مبدئهم الأول"[2].

لقد استطاع أفلاطون إذن أن يؤسس للواقعية من خلال هذه النظرة إلى طبيعة الكليات العقلية، وإذا كان بعض النقاد يرون أن الوجود الخاص للكليات هو أساس الواقعية، فإن معرفة هذه الكليات في وجودها الخاص يبقى محل نقد وتقريض، فقد انتبه مورس كوهن إلى هذه المسألة فنجده يقول:" إنني أنظر إلى مشكلة الوجود الخاص بالكليات على أنها المسألة الأساسية التي يثيرها مجلد الواقعية الجديد"[3].

---

[1] - ولتر ستيس. فلسفة هيغل. ت: إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة للطباعة والنشر، 1975، ص30.

[2]- W.P. Montagve, story of American Realism, in Runns Twenteeth Century ohilosophy, 1935, p.426.

[3]- Marris cohen. Studies in philosophy and seience, frederik unger phblihin co, new york, 1949,,p109

ويجب أن نشير هنا إلى أن مشكلة المعرفة عند الواقعية تغدو معقدة أكثر فأكثر، عندما تنظر الواقعية إلى علاقة الكليات بالتجربة الحسية، أي أن الواقعية قد استبدلت الجزئي بالكلي، كما استبدلت التجريبي بالحسي، وعلى هذا الأساس نقول إن طبيعة المعرفة الواقعية تصبح معقدة أكثر إزاء هذا الموقف من الكلي والجزئي، ثم من التجريد والحس، فحول النظرة إلى الكليات وإمكانية معرفتها على النحو الذي قدمته الفلسفة الواقعية، نجد أن هناك من يقول" لقد جرى العرف على أن السبيل إلى تكوين التصور الكلي واحدة لا تتغير وهي التجريد، بينما قدمت الواقعية الجديدة نظرية جديدة للكلي من خلال نظرتها للتجربة الحسية. فالتجربة الحسية لا تحتوي عندهم على الأفراد الجزئية بل تشمل أيضاً الإطارات أو المجموعات الكلية التي تدخل هذه الأفراد فيها على أرض الطبيعة، ويتحدد معناها بانتمائها إليها أما الماهيات، فالأفراد الجزئية تحيا بطبيعتها في إطار كلي أو تشكيل تجريبي تخضع له وتنتمي إليه، وهذا التصوير يقابل التصوير الكانطي للمقولات"[4].

ويبدأ الخلط الذي تعاني منه الواقعية من ضرورة التمييز بين نوعين للواقعية، طبعاً فيما يخص واقعية أفلاطون، وهذا قد ينسحب على تاريخ الواقعية بالكامل، وهذا التمييز يجب أن يطال طريقة النظر إلى الواقعية، حتى نتمكن من فهم مشكلات الواقعية المعرفية وتمييزها عن تلك الميتافيزيقية، ذلك أن المذهب الواقعي له نوعين من المعاني، المعنى المعرفي والمعنى الميتافيزيقي، أو كما يرى بعض الباحثين فإننا يجب" أن نميز بين نوعين مختلفين للواقعية حيث نجد للمذهب الواقعي معنى بالنسبة إلى نظرية المعرفة، وآخر بالنسبة للميتافيزيقا، وهذان المعنيان مرتبطان إلا أنهما لا يعنيان نفس الشيء. فالمذهب الواقعي في نظرية المعرفة يعني وجود الموضوعات العينية مستقلة عن الإدراكات الإنسانية، فالأشياء موجودة سواء أدركناها أم لم ندركها، ولا بد أن تكون موجودة سواء كانت هناك كائنات بشرية أم لم تكن، أما الواقعية في الميتافيزيقا فتنسب نفس هذه الواقعية إلى كل الموضوعات المعينة المجردة، أي أن الموضوعات المجردة يجب أن تكون كالموضوعات العينية مستقلة عن الإدراكات الإنسانية، ومستقلة عن الموضوعات العينية الشبيهة بها"[5].

وبالنسبة لنا فإن هذا التمييز يزيد الواقعية الأفلاطونية غموضاً وتعثراً، بل ولا يحل هذا التمييز عقدة المعرفة في الواقعية، وربما يكون أفلاطون نفسه لم يستطع أن يتخلص من هذا الخلط لا على مستوى نظرية المعرفة، ولا على مستوى الميتافيزيقا، والجدير بالذكر هنا أن الخلط الذي وصل إليه أفلاطون بين المعرفي والميتافيزيقي والذي أوقع فيه تاريخ الواقعية بالكامل على ما يبدو، إنما يعود إلى أن أفلاطون كان يريد أن يرفض ما ذهب إليه السفسطائيون من القول بأن الإنسان هو معيار الحقيقة، ومعيار المعرفة، وأن يعبر من هذا النقد إلى رفض الإحساس كعنصر للمعرفة مما أوقع أفلاطون نفسه في مشكلات متعددة، ونحن هنا لا نبرر له الوسيلة، بل إننا نريد أن ننقد الغاية نفسها التي أراد أفلاطون أن يصل إليها، إذ إن وصوله إلى القول بكليات واقعية حسية وليست تجريدية قد زاد تعقيد المشكلات المعرفية، إذ من الثابت تاريخياً أن أفلاطون كان قد تصدى للسفسطائية التي قالت بإمكانية المعرفة الإنسانية، وقابلية كل فرد لأن يعرف، وهذا ما رفضه أفلاطون، إذ كما يرى محمد وقيدي أن أول تعريف للعلم يرفضه أفلاطون، هو ذلك الذي يقول إن العلم هو الإحساس، وأفلاطون" عندما يقدم محاور سقراط هذا التعريف، يمهد سقراط لمناقشته ودحضه بإرجاعه إلى القائل به وهو بروتاغوراس الذي يقول بأن الإنسان هو مقياس كل شيء، فيجعل بذلك من إحساس كل إنسان فرد مصدر علمه ومعرفته بحقيقة الموضوعات التي يحس بها، إن أول نتيجة تنتج عن هذا القول إنه لا يمكن

[4] - يحيى هويدي. دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، النهضة العربية، القاهرة، 1968، ص183 وما بعد.
[5] - محمد مهران. فلسفة برتاندرسل، دار المعارف، 1976، ص159.

تأكيد حقيقة أي شيء في ذاته خارج إحساسنا به، فالشيء الذي قد يظهر صغيراً ليس صغيراً في ذاته، لأنه قد يُعطى بالنسبة لإحساس آخر بأنه شيء كبير، وهكذا لا يوجد شيء واحد محدد في ذاته ذو صفة ثابتة وإنما الوجود في صيرورة وحركة وامتزاج متبادل وباستنتاج هذه النتيجة الأولى فإن سقراط يوحد، من جهة أولى، بين إشكالية بروتاغوراس وهيرقليط وانبادوقليس، ليضعها في معارضة إشكالية بارمنيد من جهة ثانية"[6].

لا بدّ أن نذكر هنا أنّ رفض الحس والمعرفة الحسية الذي بدأت عند أفلاطون من خلال موقفه هذا من السفسطائية، لا يعني أن أفلاطون كان على حق، بل ولا يعني أيضاً أن نسف النظرية السفسطائية في المعرفة وعلاقة الحس الواقعي بموضوعات المعرفة قد جعل أفلاطون يبدو أكثر وضوحاً فيما يخص المعرفة وموضوعاتها، بل على العكس من ذلك فإن أفلاطون لم يستطع أن يتخلص من الواقع مع أنه قد تخلص من الحس والمعرفة الحسية، إذ إن تطور الواقعية نفسها يفصح لنا عن محنة أفلاطون فيما يخص الكليات الواقعية، فالواقعيون الجدد يرفضون كل ما هو غير منطقي ورياضي في نظرية المعرفة الأفلاطونية، فإذا كانوا قد قبلوا المنطق الأفلاطوني على صعيد المعرفة الواقعية، فإنهم قد رفضوا أفلاطون جملة وتفصيلاً فيما يخص الأخلاق والجمال وبقية القيم، وهذا ما لاحظه أحد الباحثين بالقول:" فلا يذهب الواقعيون الجدد مثل أفلاطون في عزو الاستقلال إلى المواضيع المجردة والقدرات العقلية المثالية، ولا يتفقون معه بأن مثل تلك المواضيع المجردة هي الحقائق الأخيرة فقط. بعبارة أخرى نقول إذا كان الواقعيون الجدد يقبلون فقط من واقعية أفلاطون الجزء المنطقي الرياضي فهم في نفس الوقت يرفضون قبول الوقائع الخاصة بالأخلاق والجمال كحقائق مطلقة ثابتة. فإذا كان أفلاطون يقول بحقيقة مطلقة وخير مطلق، وجمال مطلق، ويعطى له وجود وجمال أكثر مما يعطى لوقائع هذا العالم، فالواقعي الجديد يرفض هذين القولين، ويقبل فقط قول أفلاطون أن خصائص المثلث الرياضي أو ضرورات التضمين المنطقي تكون فعلية"[7].

إن الخوف الأكبر من هذه النظرية الأفلاطونية ليس فقط في جعل الواقعية تبدو مضطربة على مستوى نظرية المعرفة، بل إن الخوف الأكبر كما نقول هو أن يكون أفلاطون قد حول ما هو معرفي تاريخي إلى أيديولوجي ميتافيزيقي، فمن الواضح أن أفلاطون عندما يرفض الحسي فإنه سيلجأ إلى عضو آخر للمعرفة وهو مختلف تمام الاختلاف عن الحس، كما أنه ليس قريباً من الواقع بقدر ما هو متعالٍ عنه وهذا العضو المعرفي الذي يذهب إليه أفلاطون إنما هو النفس التي هي قوة غير جسمانية، وهذا ما يشير إليه محمد وقيدي بالقول:" ينتقد أفلاطون التعريف الذي يجعل العلم مطابقاً للإحساس وهو لا ينتهي بذلك مباشرة إلى تقديم تعريف آخر عن العالم، كل ما يفعله في محاورة ثياتيتوس هو أنه يحاول أن يمهدنا لاتخاذ الطريق الذي يسمح لنا بالاتجاه عن بلوغ تعريف صحيح عن العلم، وهذا الطريق هو الذي يرشدنا إليه السؤال الذي يضعه سقراط على محاوره عن الكيفية التي يمكن أن ندرك بها التشابه في ذاته أو الاختلاف في ذاته، فبالإحساس لا نصل إلا إلى أن ندرك أن هذا الشيء أو ذاك متصف بصفة كالصغر أو الكبر، لكن دون أن نصل إلى إدراك الكبر في ذاته الذي تشترك فيه كل الأشياء في ذاتها، فلا بد إذن من قوة غير جسمانية لإدراك هذه الحقيقة وهي النفس. فالنفس التي تفكر في الإحساسات وتقارن الواحد منها بالآخر لكي تستخلص ما هو مشترك بينها، وهكذا نستطيع أن نتقدم في تعريف العلم بالقول إنه لا يتمثل في الاحساسات، بل يستند إلى تعقل الاحساسات، إذ به يمكن أن نصل إلى الوجود وإلى الحقيقة لكن بغيره لا يمكن"[8].

---

[6] - محمد وقيدي، ماهي الابستمولوجيا، دار الحداثة، ط1، بيروت، 1983، ص50.

[7]- R.B.Perry. being am introduction present conflicat of ideals, the macmill an co, new york, 1909, p.371

[8] - محمد وقيدي، ماهي الابستمولوجيا، مرجع سابق، ص52

وحقيقة الأمر أن المشكلة المعرفية في واقعية أفلاطون يمكن أن تنحل إلى مشكلة سياسية، بحيث يمكن القول إنه لم يكن أميناً لنظرية المعرفة بقدر ما كان أميناً لتوجهاته السياسية، وهو ما أدى به إلى الخلط بين ما هو معرفي وما هو ميتافيزيقي، وما هو معرفي أيضاً وما هو سياسي، وكل ذلك يجد تفسيره في موقف أفلاطون من أنطولوجيا الإنسان، هذه الأنطولوجيا التي تنطوي على فهم غريب للإنسان يجعله جملة من القوى المتناقضة والمتعارضة مما قد يعزز إنتاجه لنظرية في المعرفة أكثر تضارباً وأكثر تناقضاً، وهذه مسألة أشار إليها حامد خليل عندما يقول" ليس الإنسان بالنسبة لأفلاطون وحدة فيزيقية نفسية متوازنة، ولا هو بالكائن الذي يتكون في التاريخ، ويحول طبيعته في الوقت نفسه الذي يحول فيه عالمه الطبيعي وعالمة الاجتماعي، الأصح أنه، في نظره، مجموعة قوى ذات مطالب يناقض بعضها البعض، وتقوم بينها حرب شعواء لا تنتهي إلا بانتصار بعضها واستسلام البعض الآخر عنوة، وبلغة أفلاطون، سيادة أحداها من جانب، وخضوع القوى الأخرى لها من جانب آخر، وكذلك فإن طبيعته ناجزة منذ البداية، أي بالفطرة، وستظل ثابتة على ما هي عليه حتى النهاية"[9].

وإذا كان أفلاطون في نظريته حول أنطولوجيا الإنسان قد كرس انقسام الإنسان على نفسه، وهو رأي يؤخذ بالحسبان فإننا نصل إلى موقف مفاده أن أفلاطون لم يهتم أصلاً سوى بالنسق المنطقي العقلي، وكيفية تبرير المعرفة الرياضية في علاقتها مع الواقع، من ذلك ما يشير إليه نقاد أفلاطون حول العلاقات الرياضية المستقلة عن الوعي البشري، والتي يمكن أن نسميها هنا بالمعرفة الكلية المجردة طالما أنها علاقات ونسب رياضية، إذ لا يبقى من نظرية أفلاطون المعرفية سوى الجانب البسيط منها والذي هو جانب منطقي رياضي قد يشترك فيه كل أفراد البشر، من ذلك مثلاً أننا كما يلاحظ أحد الباحثين قد نجد" أن كلا من عالم الرياضيات والمنطق يكتشف أن تضمينات معينة أو نتاج معين ينبع بالضرورة من قضايا معينة، وعلى هذا فإنه إذا كانت س أكبر من ص. ص أكبر من ع، فإن س أكبر من ع، وهذه حقيقة مجردة أو كلية، لا تتمسك بكل الحالات الخاصة ل س، ص، ع، وحتى لو لم يكن هناك حالات خاصة مطلقاً، وهذه بالفعل حقيقة لا تتعلق بأي شيء فردي موجود، ولكن بالأحرى تتعلق بالعلاقة العامة(أكبر من) وقد نعبر عن هذا أحياناً بقولنا إن(أكبر من) تكون علاقة متعدية، وهذه السمة الخاصة بالعلاقة مستقلة تماماً عما نعتقده أو نريده، هي حقيقة متحررة الخضوع الهوى أو الرأي الإنساني، مثل الحقيقة الخاصة التي تقول إن الشمس تكون أكبر من الأرض، فهي حقيقة مثل الحقائق الطبيعية يجب أن توضع في الاعتبار، وتقبل كما هي بواسطة أي فرد يريد أن يتكيف مع هذا العالم"[10].

ولكن هذا الجانب البسيط من نظرية أفلاطون لا يفصح عن طبيعة المعرفة، و التي لا يمكن اقتصارها على هذه الكليات الرياضية والنظر إليها على أنها هي الواقع نفسه، أو على الأقل أنها تفسر علاقات الواقع المعرفية، ولهذا نجد أن أفلاطون قد رفض المعرفة الحسية، وذهب إلى القول بالمعرفة العقلية التي هي المثل وهنا ينتصر أفلاطون للنفس باعتبارها العضو الوحيد للمعرفة ويرفض الحواس وإمكانية أن تدخل في نظامه المعرفي وهو أمر يحتاج إلى إعادة النظر في مجما فلسفة أفلاطون.

[9] - حامد ابراهيم. مشكلات فلسفية، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 1996، ط2، ص33.

[10]- R.B.Perry. present conflicat of ideals, Longmans green& co, new york, 1912, p.372

ثانياً: نقد مقولتي المحايثة والاستقلال في الفلسفة الواقعية:

المحايثة من حيث اللغة هي كلمة لاتينية بمعنى" يمكث في وتطلق على الكمون"[11]. وأول من استخدمه هو أرسطو، ولكننا نجد تطويراً لهذا المصطلح في فلسفة كانط، كما يمكننا القول إن هناك تياراً فلسفياً عُرف بالفلسفة المحايثة، وهو " تيار انتشر في نهاية القرن التاسع عشر، والمسلمة الرئيسة لهذه الفلسفة تقول لا وجود إلا لما هو موضوع الفكر، والوجود محايث للوعي، والموضوع مرتبط ارتباطاً لا ينفصم بالذات، وقد أدخل المحايثون مفهوم الوعي بشكل عام الذي كانوا يفترضون أنه مستقلاً عن العقل البشري، وقد تبنت الواقعية الجديدة موقف المحايثون من نظرية الانعكاس وتعريفهم للمعرفة بأنها مرور الأشياء في الوعي"[12].

ولكن يجب الانتباه إلى مسألة هامة، وهي أن المحايثة قد وجدت في التيارات المثالية والواقعية، ومنها الواقعية الجديدة، ولهذا يتوجب علينا أن نقدم تمييزاً للمحايثة ينطوي على معنيين اثنين، فقد جاء في المعجم الفلسفي" مبدأ المحايثة يعني أن الكل داخل في الكل وتطبيق ذلك في مجال المعرفة يدل على معنيين، الأول هو المحايثة ، أي القول باستحالة وجود شيء خارج الفكر، لأن الفكر لا يعرف إلا ما سبق وجوده فيه، ولا قدرة له على معرفة الأشياء المستقلة عنه أو الموجودة بذاتها، وهذا مبدأ أساسي للمثالية. والمعنى الثاني هو المحايثة الإضافية، وهو القول إن الإنسان لا يدخل في علمه، إلا ما كان مطابقاً لحاجة من حاجاته، ولا يترك الحقيقة إلا إذا كان في نفسه استعداد لقبولها فكأن علمه بالشيء وإدراكه للحقيقة أمران إضافيان متعلقان بالحاجات والاستعدادات الكامنة في نفسه، وكأن الشيء محايث في الحاجة التي يرى فيها محايثة الحقيقة في الاستعداد لقبولها أو كمون الغاية في الوسيلة المؤدية إليها"[13].وبرأينا فإن هذا التمييز بين المعنيين المتعلقين بالمحايثة هو تمييز منطقي لا أكثر، وتبقى المحايثة التي اهتمت بها الفلسفة هي فقط المحايثة بالمعنى الأول حيث الكل في الكل أنطولوجياً ومعرفياً، وإذا كانت المحايثة تنطلق من مبدأ الكل في الكل، فإن أولى المشكلات التي تصادفنا هنا هي موقع مقولة الواقع، فإذا كان كل شيء موجود في كل شيء، فإذا ليس هناك من وجود سوى الوجود الواقعي بحيث يغدو الإنسان جزءاً من هذا الواقع، فلا يعود فاعلاً فيه وقادراً على معرفته بقدر ما يصبح كائناً منفعلاً بالواقع تسري عليه قوانين الواقع ومعارفه، وهو يخضع لها وإزاء هذه المشكلة التي تفرض نفسها على طبيعة المعرفة وعلى نظرية المعرفة لدى الواقعيين، فإن اتباع هذه النظرية قد حاولوا الخروج من هذا المأزق بالحديث عن الاستقلال، أي وجود الأشياء مستقلة عن العقل، وفي الوقت نفسه فإنها حاضرة أمام هذا العقل كموضوعات معرفية وليس فقط كموضوعات واقعية، أي من حيث الوجود الواقعي، ويقول نقاد هذه النظرية، أي نظرية الاستقلال أنها" هي النظرية الأساسية التي تميز كافة الاتجاهات الواقعية، وقد جهد الفلاسفة الواقعيين في إثبات هذا الاستقلال، وإذا كان الاستقلال مبدأ عاماً يميز جميع الواقعيين بلا تحديد، والمحايث تبنتها بعض التيارات المثالية إلا أن (استقلال المحايثة) هو الجديد الذي افترضته الواقعية الجديدة لدى بيري وزملائه، لن يكون الأمر بعيداً عن الحقيقة إذا ما قلنا إن المبدأ الرئيسي لها هو استقلال المحايث"[14].

ولكن هل يعني ذلك أن الاستقلال يوضح لنا طبيعة المعرفة لدى الواقعيين، ثم هل ينقذ الاستقلال المحايث الواقعية برمتها من هذا الخلط المستمر بين العقل وموضوعات المعرفة، وبالطبع هذا الأمر يزيد المسألة تعقيداً في حالة

---

[11] - ازفلد كولبه. المدخل إلى الفلسفة، ت: أبو العلا عفيفي، دار أقلام عربية، 2018، ص124 ومابعد

[12] - R.B. PERRY. Ibid, p. 10

[13] - R.B, Perry. General theory of value, p.10

[14] - ibid, pp, 10-11

الواقعية، فالأشياء توجد مستقلة عن العقل الذي يدركها، ولكنها في الوقت نفسه إنما هي موضوعات عقلية، إذ إن أهم شيء كما يرى باحثون" بالنسبة إلى أي موقف واقعي هو تأكيده على أن الأشياء توجد مستقلة عن العقل الذي يدركها، واستقلال المحايث يعني في الواقعية الجديدة أن العالم وموضوعاته حقيقة، وغير تابع للعقل وفي الوقت نفسه ماثل مثولا مباشراً أمام العقل في المعرفة والإدراك"[15]. وهنا أيضاً نجد أن المعرفة الواقعية قد أصبحت مطالبة أكثر فأكثر بتوضيح ما تعنيه المحايثة وما يعنيه الاستقلال، ومشكلة هذا التوضيح تكمن في أن بعض فلاسفة الواقعية مثل بيري مثلاً الذي ينتمي إلى الواقعية الجديدة قد حاول أن يتحدث عن محايثة الوعي، أي أن نظرية المعرفة الواقعية تكون بذلك قد انقذت نفسها صورياً– منطقياً ولم تنقذ نفسها على المستوى الواقعي، أي كيف يمكن لنظرية معرفة تقول بالواقعية أن تتحدث عن الوعي بوصفه مستقلاً أمام أمرين: هما الموجودات الواقعية من جهة ومضامين العقل من جهة أخرى ولم تتمكن الواقعية من الخلاص من هذه الأزمة إلا بإيجاد مجال جديد يربط بين ما هو واقعي وما هو عقلي، وهذا المجال أطلقت عليه اسم مجال العلاقات، حيث ذهب بيري إلى القول بأن عناصر الواقع هي التي" تؤلف العقل والجسم، فلا ينقسم الواقع إلى مجال للعقل وآخر للجسم، ولكنه بالأحرى مجال للعلاقات"[16].

ونحن نعتقد أن هذا الحل الذي هو مجال العلاقات لا يرفع الغموض عن نظرية المعرفة لدى الواقعيين، بل يزيد الأمور تعقيداً، فقد أبقت الواقعية على علاقات الواقع بوصفها مشتركة بالمضمون، ولكنها مختلفة بالوظيفة كما يرى نقادها، إذ يقولون" فحين يكون أي شيء معلوم فإنه يدخل في علاقة تشكله كمضمون للعقل والأشياء في علاقتها بكونها معرفة هي الأفكار، ويمكن لهذه الأشياء أن تحافظ في الوقت نفسه على تنوع العلاقات الأخرى، والأشياء تكون محايثة في العلاقات الإدراكية، لكنها لا تتشكل بواسطة هذه العلاقة، لأنها تتخطى هذه العلاقة بظهورها في علاقات أخرى في الوقت نفسه، ولكن أهم نقطة هنا هي أن الاختلاف بين المعرفة والشيء مثل ذلك الذي بين العقل والجسم هو اختلاف علائقي ووظيفي وليس اختلافاً خاصاً بالمضمون"[17]. وإذا كنا سنتفق مع الواقعيين في هذه الحالة، فإننا قد نتفق معهم في الحديث عن الواحدية الأبستمولوجية بين المحايثة والاستقلال، أما من حيث الواقع فإن الثنائية تبقى حاضرة ولن تتمكن الواقعية من حل هذه المشكلة، إذ يبقى عنصر الاستقلال حاضراً على مستوى الواقع، ولكن يلجأ هنا الواقعيون إلى المحايثة التي تصر على رفض الثنائيات، حيث نجد أن هذه النظريات" ترفض كلا من ثنائية العقل والجسم وثنائية الفكر والشيء، وبدلا من ثنائية الجواهر العقلية والفيزيائية فإنه يستعاض عنها بمفهوم تنظيمات المضمون. وبدلاً من فهم الواقع على أنه ينقسم بين مجالين لا يمكن اختراقهما مطلقاً فإننا يمكن أن نفهمه على أنه مجال لعلاقات متداخلة، بينها تلك العلاقات التي يصفها علم الطبيعة وعلم النفس على أنها الأكثر ألفة، ونمطية ويصفها علم المنطق على أنها الأكثر بساطة وعمومية"[18]. والمشكلة أن الواقعيين ولكي يتخلصوا من مشكلة الاستقلال والمحايثة ينصرفون إلى تحويل كل نظرية المعرفة إلى مجال العلاقات فقط، وهم بهذا يلتقون مع إميل برهييه الذي رأى أن" جميع النظريات التي عرضها تتجه بصفة عامة إلى نقطة واحدة، فهي(النظريات) لا تعتقد أن الشعور وعاء مغلق توجد فيه الظواهر

[15]- R.B.PERRY. Realms of value,A gritique of human civilization, Harvard uni, press, combrudge, 1954,, p.1

[16]- Andrew Reck,Recent American phil, pantheon book a Division of House, new york, 1964,,p.21

[17]- R.B.PERRY. Realms of value, p.2

[18]- R.B, Perry. General theory of value, p.116

الشعورية كما لو كانت سجينة، بل يشبه الشعور أن يكون قطباً له ما يقابله وهو إما العالم الخارجي، وإما شعور الأخرين وإما الحقيقة العليا وذلك تبعاً لاختلاف التراكيب المشار إليها"[19].

وقد انتشر هذا الرأي الذي أسست له الواقعية، أي تحويل كل عناصر نظرية المعرفة إلى مجال العلاقات ليتحول إلى اتجاه عام للفلسفة، حيث يبرز هنا ألبرتو بيرلو الذي يقول" نستطيع الكلام عن مجال نفسي ونريد به سلوكاً منظماً يتألف من تيار من الحركات والصور التي يواجهها أحد الميول، ومثل هذه المجالات هي الظواهر الأولية التي لا يمكن التفرقة بين عناصرها الأولية إلا من الوجهة النظرية المجردة، وإذن فلربما كان المجال هو الحقيقة الكونية التي تسموا على التفرقة بيم العقل والمادة"[20]. ولعل المسألة تصبح أكثر تعقيداً، إذ إن الواقعية أخذت تتجاهل المقولات التقليدية للفلسفة كالجوهر والحال والموضوع والذات، ودمجت كل هذه المقولات في مفهوم علاقات المجال، فلكي تتخلص الواقعية من دور العقل والمعرفة المباشرة وغير ذلك من الموضوعات المتعلقة بنظرية المعرفة نجدها تطرح علاقات المجال كحل بديل لكل هذه العناصر، من مبدأ أن" الشيء يسمو على الفكر، وذلك أولاً لأنه كمضمون يتميز كلياً عن الفعل العقلي الذي يعنيه وثانياً لأن له طبيعته الداخلية الخاصة به، والتي بها يدخل في علاقات غير إدراكية– على سبيل المثال علاقات فيزيقية مع الأشياء الأخرى، وينتج عن ذلك أن وجود الشيء مستقل عن الذات أو ما يسميه الواقعيون تفوق الموضوع Sa Transcendance وليس معنى الاستقلال هنا أن ثمة حداً فاصلاً بين الموضوع والذات، بل معناه فقط أن الذات لا تؤثر في وجود الشيء باعتباره موجوداً متفوقاً في الخارج، إن الذات تتصل بالموضوع اتصالاً ما، ولكنها لا تؤثر فيه"[21]. وعلى هذا النحو تتخلص الواقعية من الطرح التي بدأت به، وهو الكليات العقلية لتقول إن المعرفة لا تعتمد على العقل وحده، بل إنها تعتمد على الأطر الموضوعية لوجود الأشياء في الواقع ، وهناك من يؤكد على هذه المسألة مثل الدكتور هويدى الذي يقول:" إن معرفتنا للشيء لا تعتمد على العقل وحده إذ إن وضع الشيء بالنسبة إلى ما يحيط به من أشياء أخرى في المكان والإطار الموضوعي الذي يظهر به في الوجود الواقعي أو في الكون وانتمائه إلى مجموعة معينة من الأشياء كل هذا يؤدي إلى توضيح الموضوع بالنسبة لنا، وهذا التوضيح لم يكن للعقل نصيب فيه على الإطلاق"[22].

وبهذا يمكننا أن نؤكد على أن مشكلة المعرفة لدى الواقعية تزداد غموضاً كلما طرحنا مسألة العلاقة بين الذات العارفة والشيء المعروف على بساط البحث، إذ يصبح وجود الأشياء ليس مرهوناً بمعرفتها، وتلجأ الواقعية هنا إلى تبريرات غير معقولة وغير واقعية عندما تصرّ على أن الذات لا يمكنها أن تعرف سوى الأشياء البسيطة في موضوع المعرفة، فيبدو بالنسبة لنا أن الهم الأساسي لدى الواقعية هو أن تبرهن على استقلال المحايثة، أكثر مما تسعى إلى البرهنة على قدرة الذات العارفة على معرفة الواقع عندما لا تبقي الواقعية على أي شيء من موضوع المعرفة سوى على القرائن أو علاقات المجال، وهذا يؤدي إلى معرفة غير حقيقية، طالما أن الهم لدى هذه الواقعية لا يعود منصباً على الشيء الواقعي في ذاته بقدر ما يعود منصباً على وجود هذا الشيء ضمن قرائن وعلاقات قد لا نضمن ثباتها وديمومتها ومدى تأثيرها على وجود هذا الشيء، مما ينعكس على قدرتنا على معرفته، وهو أمر يهدد نظرية المعرفة بالكامل، إذ إننا نرى أن معرفة العلاقات ليست هي نفسها معرفة الشيء الواقعي كما أنها قد تقدم معرفة قابلة للنقد في كل حين.

[19] - ibid, p.116

[20]- S.C.Pepper. the sources of value, uni of clifornia press, 1958,. P. 119

[21]- R.B.PERRY. Realms of value, p.5

[22]- Frandzi Risieri. What is value? P.10-11

ثالثاً: نقد مفهوم الحس المشترك.

تعتمد الواقعية على الحس المشترك من أجل تأكيد الوجود الواقعي، بمعنى ما فإن الأشياء موجودة وجوداً موضوعياً دون أن يكون للوعي بوجودها أي أثر أو تأثير، ويمكننا هنا أن نلاحظ أن مقولة الحس المشترك هي مقولة غير مبرهن عليها عند الواقعية، وبشكل أو بآخر فإن الواقعيين يتحدثون عن الحس المشترك وكأنه نوع من البديهيات أو تلك المسلمات التي لا تحتاج إلى برهان في نظرية المعرفة والمنطق، لأن الواقعية تصوغ هذه المسألة على النحو التالي فيما يخص الوعي والواقع، فتقول بتغير الوعي تبعاً لتغير الموضوعات، فلا أثر إذن للوعي في هذه الموضوعات، وكأن الوعي هنا هو وعي سلبي، عليه فقط أن يتقبل ما تفرزه الموضوعات من عناصر معرفية، ويؤكد هذا الزعم أحد الفلاسفة وهو مونتاجيو الذي يقول" الموضوعات تأتي وتذهب كما تشاء بينما تعتمد خبرتنا وتغيراتها بدرجة كبيرة عليها وعلى تغيراتها، وعكس ذلك غير صحيح"[23]. ونحن هنا نلاحظ أن الواقعية تحاول أن تقف ضد الجدلية التي تقول بجدل العلاقة بين الوعي وموضوعات الواقع، فنحن والحال كذلك، نعتقد أن المعرفة الواقعية هي معرفة سلبية، عندما تريد أن تنحي الوعي ودوره المؤثر في تغير الموضوعات، فكأن الوعي هنا مستقبل للمعرفة فقط، ولا يؤثر في موضوعات المعرفة، وهذا أمر غير محسوم في تاريخ الفلسفة، هذا بالإضافة إلى أن الواقعية لا تبدأ البحث في المعرفة على نحو ممنهج، ذلك أن البحث في المعرفة وفي العلاقة بين الوعي وموضوعات المعرفة لابد أن ينطوي على البحث في طبيعة الوعي، ثم طبيعة موضوع المعرفة، وهذا ما تفتقد إليه الواقعية، فهي تهتم فقط بموضوع المعرفة، وتبقي على الكائنات المعروفة بوصفها كائنات معروفة كما هي دون تدخل الوعي في طبيعة هذا الكائن المعروف، وهنا يبرز لدى الواقعية مفهوم الاستبعاد، بمعنى أن الكائن يكون معروفاً سواء حدثت هذه المعرفة أم لا، وبهذا تتملص الواقعية من أية علاقة جدلية بين المعرفة وموضوعها، ولهذا نجدها في بيانها التأسيسي قد تحدثت عن هذا الموضوع بالقول" بينما تعترف الواقعية بتحصيل الحاصل من حيث إن كائناً معروفاً يكون داخلاً في علاقة المعرفة أو الخبرة أو الوعي نؤمن أن هذه المعرفة قابلة للاستبعاد ومن ثم فإن الكائن يكون معروفاً كما هو كائن إذا لم تحدث المعرفة وذلك يعني أن الكائن من حيث وجوده وسلوكه مستقل عن المعرفة، وهذا الوضع يتفق مع الحس المشترك والعلم"[24]. وهنا قد يختلط ما هو معرفي بما هو أنطولوجي مرة أخرى لدى الواقعية، أي أنها تتحدث في مجال نظرية المعرفة كما لو أنها تتحدث في المجال الأنطولوجي، وهذا إلى حد كبير مأخذ هام على الواقعية، فهي تأخذ الموضوع وكأنه معطى جاهز وتبدأ بالتعامل معه على هذا الأساس، وهذه الميزة لا تقدم معرفة حقيقية، بل إنها تجعل الفيلسوف يكتفي بحقيقة واحدة عن الموضوع لكي يعتبر نفسه بأنه قد عرف هذا الموضوع معرفة تامة، فالفيلسوف هنا يتحدث فقط عن حقائق أولى كما يرى محمد وقيدي" فإن الموضوع حين يؤخذ كوحدة جاهزة لا يجد صعوبة في أن يلائم مبادئ عامة. لذا فإن التقلب والتحول لا يعكر صفو فكر الفيلسوف، فهو أما أن يهمل هذه الأمور باعتبارها تفصيلات لا جدوى منها وأما يكدسها كي يقنع نفسه باللامعقولية الجوهرية للمعطى، وفي كلتا لاحالتين يجد الفيلسوف في نفسه استعداداً لأن يقيم، حول العلم، فلسفة واضحة سريعة سهلة يسيرة، ولكنها تظل فلسفة فيلسوف، تكفي حينئذ حقيقة واحدة للخروج من الشك"[25]. في حين أن رصد العلاقة بين الوعي والموضوع قد يهدد القاعدة الأساسية التي تقوم عليها الواقعية، أي مبادئ الحس المشترك، وقد حاول الواقعيون من خلال مبدأ الحس المشترك أن يتنقدوا معظم المذاهب المعرفية الفلسفية، فهم ينتقدون

[23]- CF.J.Blau, the men and movement in American philosophy prentice- hall, inc, new york, 1953, p.277

[24]- Baham, prchie. Peterfreund& theoror C.Demise ,john urilery sons inc, u.s.a, 1953,,p18.

[25] - محمد وقيدي. ما هي الابستمولوجيا، مرجع سابق، ص43.

التجريبيين كما ينتقدون العقليين، وهو ما فعله توماس ريد في" بحثه عن العقل الإنساني في مبادئ الحس المشترك يعارض تقليد باركلي وهيوم يؤكد على الحس الإنساني كقاعدة وأساس، وهو يتجاوز ديكارت الذي يرى أن المعرفة هي أفكار فقط في عقلي الخاص إلى القول إن المعرفة تصل إلى ما وراء عقولنا لأن المعرفة أكثر من مجرد امتلاك أفكار وانطباعات فالمعرفة هي الحكم ويرجع الحكم إلى التجربة، إلى ما وراء الشخص، أي إلى حقيقة غير عقلية، فالحكم إذن يربطنا بالشيء الواقعي ينقلنا إليه"[26]. إن الوصول إلى حقيقة أن المعرفة هي الحكم الذي يربطنا بالشيء الواقعي وينقلنا إليه، لا يعني أن الواقعية قد وصلت إلى جوهر الحقيقة أو المعرفة بقدر ما يعني أن الواقعية لا تزال غير قادرة على شرح الفوارق التاريخية بين الوعي وموضوع الوعي، وبالتالي بين الأنطولوجيا والمعرفة خصوصاً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار طبيعة نظرية المعرفة التي يرى باحثون أنها" وهي النظرية التي يتعين على أساسها دور القوى العارفة السلبي والإيجابي في تكوين المعرفة، وكذلك دور الموضوع المعروف، ومسائل الحقيقة، ومعيار الصدق والكذب، ودور الممارسة الفردية والاجتماعية والتاريخية في تكوينها، وغير ذلك"[27]. وكما يبدو فإن هذا الفهم لنظرية المعرفة غير موجود لدى الواقعيين، أي أنهم واستناداً إلى الحس المشترك حاولوا دوماً العمل على استبعاد موضوع المعرفة أو استقلاله كما يرغب الواقعيون بتسميته، وإذا كنا نريد أن نضع يدنا على مشكلات المعرفة لدى الواقعيين، فلا بد من الإشارة إلى الاهتمام الذي أولاه الواقعيون للحس المشترك، حيث وجدوا فيه ضالتهم من أجل أن يؤكدوا على استقلال موضوع المعرفة واستبعاده، وكأنه موضوع سلبي للمعرفة، وفي الوقت نفسه نجدهم لا يقحمون أي علاقة للوعي في إدراك هذا الموضوع، فهم، أي الواقعيون، قد أخذوا من فلسفة الحس المشترك مجموعة من العناصر وبنوا عليها نظريتهم المعرفية، ومن هذه العناصر الاعتراف أولاً باستقلال الموضوع المعروف في عملية المعرفة مع اعترافهم بوجود صفات أولية وصفات ثانوية في الشيء المعروف وأن معرفة هذا الشيء هي معرفة مباشرة، وأيضاً تعتمد الواقعية على ناحية أساسية لدى نظرية الحس المشترك، وهي سلبية المعرفة تجاه التغيرات التي تطرأ على الموضوع المعروف، بحيث لا تغير المعرفة أي شيء في موضوعها أو في الكائن المعروف، كذلك تتفق الواقعية مع نظرية الحس المشترك بأن المعرفة إنما تقتصر على معرفة مظهر الشيء، وليس جوهره، فالمظاهر التي تتمتع بها الأشياء المعروفة هي فقط موضوع المعرفة، أما حول طبيعة المعرفة ، فإن الواقعية أيضاً تحتفظ بما تقوله نظرية الحس المشترك حول انعدام الوسيط المعرفي، وأن المعرفة هي معرفة فورية ومباشرة، أي أنها لا تحتاج إلى وسيط بين الإدراك وموضوع الإدراك[28].

وإذا كانت الواقعية تقول بكل ما يقوله الحس المشترك في هذه الملاحظات، فإننا نجد أن الواقعية معرضة للكثير من الأخطاء في نظرية المعرفة، ولا يمكن الركون إلى ما تأخذ به خصوصاً حول معرفة الشيء لمظاهره فقط، وأيضاً حول معرفة الشيء معرفة مباشرة دون إدخال وسيط بين الإدراك والشيء المعروف، ذلك أن الواقعية بهذا الشكل لا تسعى إلى معرفة الحقيقة، أي حقيقة الشيء، كما لا تسعى إلى إيجاد نسق معرفي متماسك بقدر ما أنها تترك نظرية المعرفة عرضة للخطأ والتكذيب، وأهم ما تعاني منه هذه النظرية المعرفية لدى الواقعية أنها بالفعل تتجاهل تقديم معرفة بطبيعة الذات العارفة ودورها في عملية المعرفة هذا أولاً، وأما ثانياً فإن معرفة المظاهر والوقوف عندها لا يكفي من أجل القول بأن هذه المعرفة صادقة منطقياً، وهذا ما يعرضها كما نقول للتكذيب، فهي أي الواقعية، تكون بذلك قد اتجهت اتجاهاً ميتافيزيقياً في المعرفة، فهي لم تدرس الموضوع ضمن الواقعة الحسية، أي اتصال الموضوع بموضوعات أخرى، إذ لا

[26] - يحيى هويدي. مقدمة في الفلسفة العامة، ط5، النهضة العربية، القاهرة، 1968،ص197

[27] - حامد خليل، مشكلات فلسفية، مرجع سابق، ص235.

[28]- Sheldon p. pererfreund& theadore c.denie. compenporary philosophy and its origins, p.17-18

يمكن معرفة الكائن بوصفه فرداً في عالم الوجود، فلابد من معرفته في اتصاله مع الكائنات والموضوعات المعرفية الأخرى، وأهم ما يميز أصحاب المنهج الميتافيزيقي هذا الذي ينتمي إليه الواقعيون هو أنه لا يدرس الظاهرة أو الواقعة المعرفية في سياقها التاريخي كما لا يهتم لموقع الذات في عملية المعرفة، وأيضاً ارتباط هذه الذات بنسق تاريخي يؤثر على الحكم المعرفي الذي تتحدث عنه الواقعية، ذلك أن أصحاب المنهج الميتافيزيقي ينتزعون موضوع المعرفة من سياقه الحاضر تماماً كما ينتزعون الذات من هذا السياق، فلا وجود لموضوع معرفة كموضوع فردي، بل إن كل موضوع معرفة، هو كما يرى حامد خليل" هو في أية لحظة في علاقة مباشرة ومتبادلة مع أي شيء آخر، أي أن العالم الخارجي وعالم الإنسان أيضاً كلاهما نسيج متشابك من العلاقات مع كافة الأشياء والوقائع الأخرى فيه، فالشجرة على سبيل المثال ليست شجرة في ذاتها إنها نسيج من العلاقات بين جذورها وأغصانها وأوراقها وأزهارها، وهي في الوقت نفسه في علاقة متبادلة مع الحجر من حيث إنها يمينه أو يساره أو فوقه أو تحته، ومع قوى الطبيعة الأخرى والعلاقات التي تقوم داخلها، مثل قوة الجاذبية والحركة العلية والتفاعل المتبادل... الخ"[29]. وانطلاقاً من هذا الفهم لموضوع المعرفة داخل نظرية المعرفة، فإننا يمكن أن نعتبر أن الواقعية من حيث نظريتها المعرفية تبقى مهددة تاريخياً وإن حاولت أن تحصن نفسها خلف قضايا المنطق الذي هو أيضاً منطق ميتافيزيقي، خصوصاً في حالته الصورية، حيث يتم اسقاط الحسابات التاريخية لصالح منهج ميتافيزيقي منطقي يعتمد على التماسك الداخلي لقضايا المعرفة ويكتفي بالمظاهر التي يقدمها الكائن المعروف.

رابعاً: البعد النقدي للواحدية الأبستمولوجية الواقعية:

تعتمد الواقعية على ما تطلق عليه الواحدية الابستمولوجية، والتي تتخلص في القول" بالنظرية الفورية في الإدراك مقابل كل صور الثنائية، ويحدد بيري الواقعية الجديدة واختلافها عن الواقعية الساذجة، والواقعية التمثيلية من حيث إن معرفتها بالأشياء تتم فورياً والخبرة تصبح مباشرة أفكاراً في الذهن، وهذه الأفكار نفسها مستقلة عن الذهن وهو يؤكد على أنه عندما تعرف الأشياء فإنها تكون أفكاراً في الذهن، وهي تدخل مباشرة إلى الذهن، وحين تفعل ذلك فإنها تصبح ما يسمى بالأفكار، يقول: إن الأشياء تقع مباشرة أو ربما تقع في الخبرة دون التعويل على كينونتها أو طبيعتها بالنسبة إلى ذلك الظرف"[30]. ويمكن القول أن هذه الواحدية الابستمولوجية التي تعوّل عليها الواقعية تخلق جملة من المشكلات المعرفية، منها وعلى رأسها هذا التجاهل لدور التغير والصيرورة في إنتاج معرفة متغيرة حول الأشياء وطبيعتها، وأغلب الظن أن الواقعيين قد تبنوا الواحدية الابستمولوجية من أجل أن يتخلصوا، كما يرى بعض نقاد الواقعية" من النظرية التصويرية Representative عند لوك لأنها ثنائية تفصل وتفرق بين الشيء المدرك وخبرتنا عن ذلك الشيء، وبالتالي تقع في مشكلة كيفية الجمع بينهما مرة أخرى، وهذا ما حدث لباركلي عندما فشل في ذلك فتصور أن أفكاره أو خبرته بالأشياء هي الأشياء نفسها، ويشترك معه في هذا هيوم وكانط، اللذان يريان أنه من المستحيل الوصول إلى معرفة الأشياء الفعلية أصلاً "[31]. ولكن ذلك لا يبرر للواقعية ما ذهبت إليه، إذ إننا نعتقد أن هذه الواحدية الابستمولوجية التي تقول بها الواقعية الجديدة، خصوصاً والتي تحاول أن تميز نفسها عن الواقعية الساذجة والواقعية التمثيلية كما ذهب بيري، نقول إن هذه الوحدة هي وحدة زائفة ليس هدفها هدفاً معرفياً، بقدر ما أنها تهدف إلى إيجاد مقابل إيديولوجي ضد الفلسفة التجريبية الإنكليزية والفلسفة التوليفية الكانطية، ذلك أننا نجد أن الواقعية بهذا الشكل توحد بين الوعي

[29] - حامد خليل، مشكلات فلسفية، مرجع سابق، ص242.

[30]- R.B.PERRY. PRESNT Philosophizal tendencies, p.308

[31] - جود. فصول في الفلسفة ومذاهبها . ت: عطية هنا ، ماهر كامل، النهضة المصرية، ص229

وموضوعاته، وكأن موضوع المعرفة هو نفسه أداة المعرفة وهو نفسه الفكرة التي تتكون لدينا عن هذا الشيء، وهنا أيضاً تتعثر الواقعية بين ما هو أنطولوجي وما هو معرفي، ذلك أن وجود الشيء على حاله لا يعني أنه يمكن أن يتطابق مع فكرتنا، فلكي تتضمن الواقعية هذه المسألة عليها أولاً أن تتخلص من الأدوار التاريخية والاجتماعية لنظرية المعرفة، فليست هناك من معرفة مباشرة وثابتة ودائمة لا تتغير، فكل ما هو موجود يمكن أن يكون موضوعاً للمعرفة، ولكن أن يكون على هذا النحو قابلاً للمعرفة لا يعني أنه ليس قابلاً للتغيير والاختلاف، مما يشير إلى أن الواحدية الابستمولوجية التي يتحدث عنها الواقعيون غير مقبولة على صعيد المعرفة، إلا إننا يمكن أن نقبلها على صعيد الأنطولوجيا والضرر الذي تلحقه الواقعية بنظرية المعرفة إنما هو ضرر يؤثر على سير وتطور نظرية المعرفة، إذ إننا وفقاً للواحدية الابستمولوجية معرفياً فإننا بذلك نكون قد حرفنا الذات العارفة عن طابعها التاريخي التراكمي، وكذلك الأمر نكون قد فعلنا مع موضوع المعرفة، وهنا فإن أقل ما يمكن أن توصف فيه المعرفة الواقعية بأنها معرفة تعيش ضمن سلسلة من الأصفار التاريخية، عندما لا تولي اهتماماً للتراكم المعرفي، وكذلك عندما لا تهتم إلى صيرورة الوجود نفسه، إن ما تقدم عليه الواقعية من خلال الواحدية الابستمولوجية يمكن اعتباره نسفاً لمفهوم المعرفة التراكمية ضمن سياق التلاحق التاريخي الذي يستخدم أو يخضع لكل شروط المعرفة ومقوماتها، وإننا إذا ما سلمنا بالواحدية الابستمولوجية التي لا تميز بين فكرتنا عن الشيء والشيء نفسه، فإننا بذلك نقف ضد الإنتاج المعرفي، ذلك أن الواحدية الابستمولوجية لدى الواقعيين تحرم الذات من طابعها التاريخي – التفاعلي في عملية المعرفة، فالذات ليست فريدة في العالم، كما أنها ليست ذاتاً آنية ومبتورة، بل هي ذات متفاعلة، ونقاد المعرفة الواقعية يشيرون إلى هذا الأمر، وهو ما يوضحه حامد خليل بالقول إن:" اعتبار الذات فريدة في العالم، يحرمها من عنصر أساسي من عناصر تكوينها وبنائها، أعني خبرات الجماعة البشرية التي تعيش هي كعضو من أعضائها، وهذا سيترتب عليه نتيجة خطيرة، وهي أنه يتعين على تلك الذات الاضطلاع بمهمة تحصيل كامل المعرفة بمفردها"[32] . وأيضاً هنا نعود لنذكر بأن الواقعية لا تكتفي فقط بتجاهل التاريخ كعنصر من عناصر المعرفة، بل إنها تريد أن تقزم دور الوعي وجعله فقط مجرد علاقة بين الذهن وموضوع المعرفة، وهو ما يذهب إليه باحثون عندما يرون أن المعرفة الواقعية تنقلب إلى مجرد تطابق عددي" مع الشيء المعروف، بل إن الوعي نفسه ما هو إلا علاقة بين هذه الموضوعات، وبدلاً من أن تعامل الموضوعات بوصفها أفكاراً في الذهن بحيث يكون تصور الذهن في هذه الحالة على أنه جوهر النظرية الثنائية فإننا نتعامل مع الموضوعات طريقة خارجية، أي ليس عن طريق العقل ولكن عن طريق نفي الوعي، فالوعي ليس جوهراً لاحقاً للعقل، بل هو علاقة فإذا كان الوعي هو علاقة، فإن موضوعاته يجب أن تكون مستقلة في الواقع من حيث دخولها في هذه العلاقة، أي بعبارة أخرى إذا كانت الموضوعات ذات وجود واقعي مستقل عن الوعي أو المعرفة بها فإن ذلك الوعي أو تلك المعرفة لن تكون شيئاً آخر سوى علاقة بها، أي بالموضوعات"[33].

وباعتبار أن ما تذهب إليه الواقعية حول دور الواحدية الابستمولوجية في تحويل المعرفة إلى انطباع مباشر لموضوعات المعرفة في الذهن، فإننا يمكن أن نعتبرها تهديداً آخر لنظرية المعرفة الواقعية، فبالإضافة إلى أن هذه الواحدية يمكن قبولها على صعيد الانطولوجية، فإنها تختلف مع طبيعة التفكير الابستمولوجي نفسه إذا ما أخذناها من جانبها المعرفي، إذ إن الابستمولوجيا لا تحاول أن تكون جزءاً من نظرية المعرفة، ولهذا فإننا نقول إن تبني الواحدية الابستمولوجية من قبل الواقعيين في نظرية المعرفة لديهم يقودنا إلى ضرورة التمييز بين نظرية المعرفة والابستمولوجيا،

[32] - حامد خليل. مشكلات فلسفية، مرجع سابق، ص249.

[33]- Boham, ibid,p.122

وخصوصاً ذلك الاختلاف الأساسي بينهما الذي يشير إليه وقيدي بالقول:" الاختلاف الأساسي بين نظرية المعرفة والابستمولوجيا أنه لا هدف للابستمولوجي في بناء نظرية عامة في المعرفة، فبالأولى أن يكون لهذه النظرية اعتبار الإجابة النهائية والحاسمة بصدد مسألة المعرفة"[34].

وإذا كان الحال كذلك فإنه يتوجب على الواقعية أن تعيد النظر في طروحاتها حول الواحدية الابستمولوجية في إطار نظرية المعرفة، والتي يمكن أن نقبلها فقط في إطار الانطولوجيا، أي الوجود الواقعي للأشياء، لا في طبيعة المعرفة المتعلقة بهذه الأشياء.

الاستنتاجات والتوصيات :

توصلنا في هذا البحث إلى مجموعة من الاستنتاجات فيما يخص نظرية المعرفة لدى التيار الواقعي ويمكن أن نجملها على النحو التالي:

1. لقد بدأ الخلط بين الميتافيزيقي والمعرفي منذ أفلاطون، الذي تحدث عن كليات عقلية منفصلة عن الذهن، وهذا يعني أن الحدود الفاصلة بين كل من الحقلين الميتافيزيقي والمعرفي لم تكن واضحة بشكل مباشر وهو ما انعكس على تاريخ نظرية المعرفة خلال مسيرة تطور التيار الواقعي.

2 . لقد لجأت الواقعية إلى مقولتي المحايثة والاستقلال فجمعت بينهما على نحو غريب، فمن جهة أولى أكدت الواقعية على الوجود المحايث لكل من الوعي وموضوعاته، في الوقت الذي كانت فيه الواقعية تصر على استقلال موضوعات المعرفة أمام الوعي، وهذا من جهة ثانية يبرز لنا أن لجوء الواقعية إلى مقولة الاستقلال كان من أجل أن تتخلص من العقبة التي وضعتها الواقعية نفسها، والتي تمثلت بمحايثة الوعي لموضوعاته، مما يعني أن نظرية المعرفة لم تصل إلى وضوح تام حيال علاقة الوعي بالموضوعات المعرفية.

3 وقد استمر الخلط لدى الواقعية بين نظرية المعرفة وغيرها من الموضوعات الفلسفية، عندما استندت الواقعية إلى مقولة الحس المشترك، ولكنها تعاملت معه على أنه نوع من البديهيات دون أن تتحقق من صلاحية الحس المشترك من أجل الانطلاق نحو دراسة الواقع ومعرفته على حقيقته، فنجدها هنا قد وقفت ضد المناهج التاريخية التي ترفض القول بالتعامل مع الموضوع بوصفه معطى ناجزاً، وهو ما قامت به الواقعية التي رفضت الاصغاء إلى مبدأ التراكم التاريخي في تكون الموضوع الذي هو موضوع معرفي ناجز ومنتهي كما هو الأمر لدى الواقعية.

4 استمر الخلط في نظرية المعرفة لدى التيار الواقعي عندما تحدثت هذه النظرية عن الوحدة الأبستمولوجية، حيث نجدها هنا قد خلطت بين المعرفي والانطولوجي، بل ويمكن القول أن الواقعية عملت على إنتاج أيديولوجيا تقف ضد نظريات المعرفة لدى الاتجاهات الفلسفية مثل التجريبية الانكليزية والفلسفة الكانطية المعتمدة على التوليف التجريبي العقلي، وهذه يعني أن الواقعية قد انتجت نظرية معرفية في لبوس إيديولوجي هدفت من خلاله الوقوف ضد التيارات الفلسفية جميعها كالتاريخي والتجريبي والعقلي التوليفي كما لدى كانط.

[34] - محمد وقيدي. ماهي الإبستمولوجيا، مرجع سابق، ص48.

5 . إن الاستنتاجات هذه التي اتينا عليها لا تعني أننا نرفض التيار الواقعي من حيث نظرية المعرفة بالكامل فقد وجد من بين الواقعين الجدد من استطاع أن يحل المعضلات المعرفية في الواقعية، ومنهم وربما على رأسهم جون غريش الذي تجاوز مفهوم المحايثة والاستقلال، ووصل إلى ما يسميه التجربة الفلسفية الروحية، فلم تعد نظرية المعرفة مجرد محاولة لفهم تشكل الوعي وارتباطه مع موضوعاته، بل إن جون غريش من خلال هذا المفهوم، أي مفهوم التجربة الفلسفية الروحية فقد أعاد الاعتبار للكائن وغيّر بذلك النظرية الواقعية وموقعها من الحياة، ونلاحظ ذلك من خلال قوله" ينبغي كسب التجربة بالتمتع بالحياة"[35] فاستطاع أن ينبذ القناعات التي تشكلت عبر تاريخ الفلسفة الواقعية مثل العقلانية الجافة والانتقال إلى المشاعر والأحاسيس، أي أن جون غريش قد انتصر لمبدأ الحس العام، وهو بذلك قد فتح التجربة الفلسفية الروحية فحررها من السائد والشائع والابتعاد عن الأفكار المسبقة، وكل ذلك من خلال استلهام جون غريش لفلسفة سقراط وتحليلاً لمفهوم العيش بالتفلسف، واستطاع بهذا القول أن يتخلص من المركزية اليونانية، واعتبار أن الفلسفة مقتصرة على اليونان، بل لقد أضاف غريش إلى الأرث الفلسفي جميع الحضارات القديمة من خلال قدراتها الروحية والسلوكية، وقد ركز في تجربته على اسئلة ثلاث هي: سؤال الفكرة التجريبية للفلسفة – التجربة الفلسفية. وسؤال الرياضيات الروحية، وسؤال الخلاص الذي توفره الفلسفة"[36]، وبذلك يكون جون غريش قد حول مسار الفلسفة الواقعية والسؤال الفلسفي حول نظرية المعرفة إلى سؤال الفلسفي حول إمكانية العيش الواقعي فلسفياً، وهذا ما يمكننا أن يكون فاتحة لأبحاث جديدة حول تاريخ التيار الواقعي ونظريته المعرفية مستقبلاً.

[35] - جون غريش. العيش بالتفلسف، ت: محمد شوقي الزين، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط- بيروت، ط1، 2019، ص21.
[36] - المصدر نفسه، ص21

المصادر والمراجع:

- ازفلد كولبه. المدخل إلى الفلسفة، ت: أبو العلا عفيفي، دار أقلام عربية، 2018.
- جود. فصول في الفلسفة ومذاهبها . ت: عطية هنا ، ماهر كامل، النهضة المصرية.
- جون غريش. العيش بالتفلسف، ت: محمد شوقي الزين، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط– بيروت، ط1، 2019.
- حامد ابراهيم. مشكلات فلسفية، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 1996، ط2.
- محمد مهران. فلسفة برتداندرسل، دار المعارف، 1976.
- محمد وقيدي، ماهي الابستمولوجيا، دار الحداثة، ط1، بيروت، 1983.
- ولتر ستيس. فلسفة هيغل. ت: إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة للطباعة والنشر، 1975.
- يحيى هويدي. دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، النهضة العربية، القاهرة، 1968.
- يحيى هويدي. مقدمة في الفلسفة العامة، ط5، النهضة العربية، القاهرة، 1968.

- Andrew Reck,Recent American phil, pantheon book a Division of House, new york, 1964
- - Baham, prchie. Peterfreund& theoror C.Demise ,john urilery sons inc, u.s.a, 1953.
- - Marris cohen. Studies in philosophy and seience, frederik unger phblihin co, new york, 1949.
- R.B.Perry. being am introduction present conflicat of ideals, the macmill an co, new york, 1909, p.371-
- R.B.PERRY. Realms of value,A gritique of human civilization, Harvard uni, press, combrudge, 1954.
- - S.C.Pepper. the sources of value, uni of clifornia press, 1958,.
- - Sheldon p. pererfreund& theadore c.denie. compenporary philosophy and its origins,
- - W.P. Montagve, story of American Realism, in Runns Twenteeth Century ohilosophy, 1935
- CF.J.Blau, the men and movement in American philosophy prentice- hall, inc, new york, 1953,
- **Sources and references**
- Oswald kulpe. Introduction to Philosophy. Tr: Abu Ela Afifi, Aqlam Arabia Bookstore , 2018.
- Jean Greisch. Living by Philosophy, Tr: Muhammad Shawqi Al-Zein, Mominoun Without Borders Institution , Rabat Beirut. 1 Edition . 2019.
- Hamed Ibrahim, Philosophical Problems, Damascus University Publications, Damascus, 2 Edition. 1996.
- Muhammad Mahran, Bertrand Russell philosophy, Dar Al Maaref. 1976.
- Muhammad Waqidi, What is Epistemology, Dar Al-Hadathah, 1983,
- Walter Stace, Hegel's Philosophy, Tr: Imam Abdel-Fattah Imam , The House of Culture for Printing and Publishing, 1975.
- Yahya Howaidi, Studies in Modern and Contemporary Philosophy, Alnahda Al-Arabia, Cairo. 1968
- Yahya Howaidi. Introduction to General Philosophy. Edition 1968, Rafqa, . 1975

- Andrew Reck,Recent American phil, pantheon book a Division of House, new york, 1964
- - Baham, prchie. Peterfreund& theoror C.Demise ,john urilery sons inc, u.s.a, 1953.
- - Marris cohen. Studies in philosophy and seience, frederik unger phblihin co, new york, 1949.
- R.B.Perry. being am introduction present conflicat of ideals, the macmill an co, new york, 1909, p.371-
- R.B.PERRY. Realms of value,A gritique of human civilization, Harvard uni, press, combrudge, 1954.
- S.C.Pepper. the sources of value, uni of clifornia press, 1958,.
- Sheldon p. pererfreund& theadore c.denie. compenporary philosophy and its origins,
- W.P. Montagve, story of American Realism, in Runns Twenteeth Century ohilosophy, 1935
- CF.J.Blau, the men and movement in American philosophy prentice- hall, inc, new york, 1953